مع الشّاعر الشيخ الحبيب المستاوي

بقلم سُوف عبيد

لئن كانت القصائد سابقة لنزول للقرآن في الجزيرة العربية فإن الشعر طفح على ألسنة الشعراء بعد أن تعلموا العربية وحذقوها من بعد حفظهم للقرآن في ربوع إفريقية التي وجد كثير من الفقهاء فيها على مدى العصور المتوالية في الشعر تعبيرا عن خلجاتهم وشجونهم بل إن بعضهم يمكن أن يُعتبر من أفذاذ عصرهم في الشعر مثل مُحرز بن خلف وإبراهيم الرياحي وتواصلت هذه السُنّة الشعرية لدى الشيوخ الزيتونيين أيضا مثل الشيخين محمد الطاهر بن عاشور ومحمد الخضر حسين وقد سلك هذا المسلك أيضا الشيخ الحبيب المستاوي صاحب ديوان ـ مع اللّه ــ وقد أصدره سنة 1980 نجله الأستاذ محمد صلاح الدين بعد وفاته ويبدو أن الديوان هو أقرب إلى المختارات الشعرية التي يجمع بينها النفس الديني المشوب بالدعوة إلى الإصلاح ولعل المستقبل القريب يسمح بنشر بقية القصائد كي نقف على المسيرة الشعرية الكاملة للشيخ الشاعر الحبيب المستاوي

الشيخ الحبيب المستاوي من مواليد سنة 1923 بالرّقبة وهي واحة جبلية من ضواحي مدينة تطاوين بالجنوب الشرقي من البلاد التونسية وقد حفظ القرآن علي يد جدّه وفي سنة 1935 اِلتحق بجامع الزيتونة بالعاصمة تونس حيث تخرج منه بشهادة العالمية في الآداب سنة 1951 فباشر التدريس والوعظ والخطابة والمحاضرة وكان ناشطا في المجالات الاِجتماعية والسياسية والنقابية وأصدر مجلة ـ جوهر الإسلام ــ سنة 1968 فالشّاعر حينئذ قد عاصر مرحلة الكفاح ضد الاِستعمار ثمّ مرحلة بناء الدولة الوطنية ويبدو أنه قد اِنخرط في الحركة الإصلاحية الدينية العامة قبل أن تتحوّل هذه الحركة إلى التنظّم السياسي المباشر بعد أن تأثرت بالجماعات الإسلامية في المشرق العربي فالشيخ الحبيب المستاوي سليل المدرسة الإصلاحية التونسي التي ظهرت منذ القرن التاسع عشر والتي تمخّضت عنها الحركة الوطنية بأبعادها المتنوعة لذا نجد الشاعر يذكر بإجلال أحد رموز هذه الحركة وهو الشيخ محمد الفاضل بن عاشور وذلك في قصيد رثائي بليغ بعنوان ـ أنّة مكلوم ـ حيث يقول فيه

سنبقى ـ مع التوفيق ـ جند محمد * ونعمل للإصلاح دون تراجـــــع
فنم مطمئن البال خلفك نخبة * سمُوا بالمعالي عن رخيص المطامع
لقد لُقنوا منك الرباط وإنهم * لماضون في درب الكميّ المدافـــــع

فالشاعر يَعتبر نفسه من تلاميذ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور الذي يمثل أحسن تمثيل المدرسة الإصلاحية التونسية المعاصرة التي اِنبرت منذ القرن

التاسع عشر في محاولاتها المتوالية جيلا بعد جيل للعمل في جميع المجالات ضمن الاِجتهاد والتجديد وفي التصدي للحكم المطلق حينا وفي التصدي للاِستعمار الفرنسي حينا آخر وفي بناء أسس الدولة الوطنية بعد الاِستقلال بعد ذلك فالشيخ محمد الفاضل بن عاشور يُمثّل رمزا للعالم المسلم المتأصّل والمتفتّح على العصر والمتجذر في بيئته الوطنية ونرى الشيخ المستاوي يقول فيه ضمن قصيد آخر

لقد عاش بين الناس عيشة مُصلح * وعَيشُ ذوي الإصلاح مُرّ مُعذّبُ
قليل هُمو الواعون أهداف نهجه * وغيرهُمُو نابٌ عليه ومخلـــــب
له صبر أيّوب إذا ما تلبّـــدت * غيومُ البلايا أو تجهّم غيهـــــبُ
درسنا مع الشيخ العظيم ظروفنا * وأوضاعنا والدّرس وافٍ ومُسهَبُ

والشيخ الحبيب المستاوي كثيرا ما نراه يستلهم القيم الإسلامية في دعوته إلى اِستنهاض المسلمين كتأكيده على المساواة والعدل والعمل والعلم والإبداع حيث يقول في ذكرى مولد الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلّم

وما اللّون والأجناس إلا عوارض * فأفضل خلق الله ذو العقل واليـــد
وأقربُهم لله من كان نفعُـــه * عميما ولم يخلِط بغاية مُفســـــد
على هذه الأهداف عاشت جدودُنا * فظلت تسُوس الكون دون مُهنّـد
وبالعلم والإبداع والخلق أخصبت * عقولُ بني الإسلام في فجرنا النّدي

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من القيم فإن الشيخ المستاوي يؤكد على الدّعوة السلمية التي كانت أساس اِنتشار الإسلام كأنه بهذا يدعو إلى نبذ العنف ذلك الذي أمسى منهجا لبعض الحركات الإسلامية وبالتالي فإن الشيخ الحبيب المستاوي إنما ينتمي إلى الحركة الإسلامية التي تتبنّى الوعظ والإرشاد والدعوة إلى صحوة إسلامية بالحكمة والموعظة الحسنة وبالاعتماد على العلم والإيمان حيث يقول في قصيد إلى الأدباء العرب

وما فرّقت إلا الجهالة بيننا * ألا إنها ـ لا غيرُها ـ بيننا الخصمُ
وليس لنا من مأزق الذل مخرج * نُيمّمُه إلا التدين والعلـم

ومن الأسباب التي دعت الشاعر إلى التمسك بالقيم الإسلامية ما لاحظه من مظاهر عديدة للتفسخ والانحلال والميوعة فابتعد المجتمع عن أصالته التي كانت قائمة على الأسس الصحيحة للدين الحنيف ومن بين تلك المظاهر نراه يصف الجنوح الأخلاقي الذي كان سائدا لدى عدد كبير من الشباب المتأثر بالموضة الغربية حيث يقول

فترى الفتاة خليعة مرذولة * ممسوخة في الشكل والهنـــدام

وترى الفتى متخنّثا متشبّها * بالمائسات وساخرا بمـــــــــــلام
خلع العذار ولم يَخَفْ من خالق * أبدا ولم يُمسك بأيّ زمـــــام
زحفت قشور حضارة مزعومة * نحو الشباب فغاب في الأوهام

من القصائد التي تُعبّر بوضوح عن المنهج الإصلاحي القائم على النّصح والوعظ قصيدة ـ وإذا تنكّر للأصالة أرعن ـ وهي قصيدة أنشأها بمناسبة زيارته للمغرب الأقصى وقد خاطب فيها الملك الحسن الثاني فاِستهلّها على النمط الجاهلي غير أنه وصف الطائرة بَدَل الناقة حيث يقول

سَبحتْ بنا في الجوّ أختُ حمام * نفّاثة محفوفة بســــــــلام
تطوي السماء بخفة وبدقة * فتخالها برقا بدا بغمـــــــــام
صُنعت لتختصر البعيد فيلتقي * أهل المحبة من بني الاعمـام
قطعت مسافة أشهر في ساعة * عجبا رأيتُ وما انا بمنـــام
أين الفدافدُ والسباسب أين ما * شاهدتُه من بُعدها المترامـي
طُويت كما يَطوي السّجلُ كتابَه * فيلفُه ويُحاط بالإبهـــــام
للّه كم بالعلم حُقّق مـــأرب * للعاملين بحكمـــــة ودوام

فالتجديد واضح في الاِستهلال الذي يختمه بالدعوة إلى العلم وهي من ثوابت الشاعر في كثير من قصائده ثم يتخلص بعد ذلك قائلا في ما يقترب من أسلوب المدح التقليدي مؤكدا على شرف النسب ومسؤولية الاِنتساب إلى الرسول المصطفى حيث يقول

جئنا لنشهد أمة عربيـــة * زحفت تُشيّد مُحكمَ الآجـــام
أنّى توجّهنا رأينا نهضـــة * تبني بجدّ صادق ونظـــــــام
والأمن يسحب ذيله متبخترا * في حُلّة فضفاضة الأكمـــام
أمّا المآثر والمشاهد فهي قد * نُقشت بلوح ما يزال أمامي

وتمضي القصيدة العصماء في اِستعراض مجد المغرب الأقصى في شتى المجالات ومغتنما المناسبة لتذكير الملك ببعض النصائح كضرورة الاِلتزام بالعدل واِعتبار الحُكم أمانة وتجنّب الظلم والقهر والأهواء كما ورد في قوله

المُلك عدل والشعوب وديعة * والحُبُّ يجرحه عنيف حسام
مَن صانه لاشك سوف يصونه * أبدا فيَضحَى فوق كل خصـام
مَن حكّم العقل الرّصين مُجرَّدا * وافاه ما يرجوه من إنعـــام

ويؤكد الشيخ المستاوي في الجزء الأخير من القصيدة على أن يكون الإسلام أساس الحكم في جميع المجالات ومذكّرا الملك الحسن الثاني أنه جدير بهذه المهمة حيث يقول

هلاَّ أعَدتُم يا مليكُ بنـاءه * في الحكم في التغليم في الإعـــــــلام

في كلّ شيء من حياة شبابنا * في الشكل في المضمون في الأفهام
حتى تكونوا أسوة نبويـــــــة * أنتم لها والله خيرُ إمـــــــــــــام

أما مسك ختام القصيدة فقد تضـمن علـى لسـان الشـاعر تحيـة الشـعب التونسي وزعيمه الحبيب بورقيبة وقتذاك بالإضافة إلى ذكره لتلاميذ الشـيخ محمد الفاضل بن عاشور ومن أسرة مجلة ـ جوهر الإسلام ــ الـتي أسسـها وأدارها الشيخ فكـانت خاتمـة طربفـة دالـة ومعـبرة عـن منهجـه الإصـلاحي القائم على الحكمة والموعظة الحسنة

وفي الديوان قصائد أخرى قيلت بمناسبات دينيـة مثـل الحـج وحلـول شـهر رمضـان والإسـراء والمعـراج والمولـد النبـويّ وغيرهـا ويؤكـد فيهـا الشـيخ المستاوي على القيم الإسلامية وأبعادها المتنوعـة وثم ة قصـائد أخـرى فـي الديوان تتضمّن الشـكوى مـن الحيـف الـذي نستشـفه فـي غضـون بعـض الأبيات كقوله

أغثني إلاهي فإني فقير * وغوثك يُزجي لقلبي مُنـــــــاهْ
و جُدْ لي بنصر عزيز على * زمان حقود بدا ناجـــــــذاهْ
وصُنْ حرمتي بِاكتفاء جميل * فغيرك ـ ربي ـ سئمت نداهْ

وقد تضمنت قصيدة ـ إلى الله ـ أشكو عشرين مقطعا يتضـمن كـل مقطـع منها عشرة أبيات يستعرض فيها بلوعة أصـناف المجتمـع فيبـدأ كـل مقطـع على هذا المنوال

إلى الله أشكو شبابا تردّى * وزلّت به الرل في الهاوية

وكقوله
إلى الله اشكو ضياع الرجولة * وما كان من قومنا من فُحولة

وكقوله
إلى الله أشكو رجال الصحافة * وأهل العقول وأهل الحصافة

وكقوله أيضا
إلى الله أشكو رجال السياسة * لما عندهم من بديع الكياسة

ففي هـذه القصـيدة نـرى الشـاعر قـد عـدّد مظـاهر التـدهور السـائدة فـي المجتمع ولعله قد مرّ بمرحلة من اليـأس بعـد محـاولاته فـي الإصـلاح علـى مدى فترات ومناسبات متنوعة تراوحت من المجال التربوي والثقـافي إلـى المجالات الاِجتماعية والسياسية سواء في تونس أو خارجها مما جعله يركن إلى الشعور بالخيبة في آخر المطاف ولعل السيرة الشخصية بما فيهـا مـن

ملابسات تاريخية توضح هذه المسألة

لئن كان هذا الديوان يندرج ضمن سياق الشعر الديني عامة بما فيه من دعوة واضحة إلى المنهج الإصلاحي الإسلامي فإنه يتراوح أحيانا بين الوجدان الرومنطيقي والوجدان الصوفي كقوله في قصيد ـ هو سر الوجود

بسمة الدهر بالسّنَى قد تجلّتْ * والأماني ثمارُها قد تدلّتْ
والشحارير بالحبور نشاوى * ردّدت لحنها الجميلَ وغنّتْ
والرياض الغَنّاء داعبها البِشرُ فماست أغصانُها ثم صلّتْ
والنسيم العليل ضمّخه العطر ففاحت أنفاسُه وتندّتْ
وعذارى الفردوس ترفُل تيها * في حُلاها وحُسنِها قد تبدّتْ

إن مثل هذه الأبيات تؤكد أن الشيخ الحبيب المستاوي لئن اِلتزم في هذه الديوان بالمنهج الإصلاحي فإن شاعريته تبدو ذات شجون وارفة تنداح على أبعاد عديدة لعلنا نقف على معانيها في ما لم يُنشر له من قصائده الأخرى.

إنَ المتأمّل في سيرة الفقهاء والعلماء في إفريقية على توالي العصور وتتالي الأمراء والسّلاطين والبايات يلاحظ
أولا ـ أنهم دأبوا على نشر العلم في الحواضر والبوادي والجبال والفيافي فعاشوا بين الناس عيشة البساطة والشَظف ونشروا اللغة العربية والقرآن الكريم فبفضلهم أضحى اللسان العربي سائدا في ربوع بلاد الأمازيغ بل اِمتدَت بفضلهم لغةُ الضاد إلى ما وراء الصحراء في إفريقيا واِنتشرت على مدى السواحل الشمالية من الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط من صقلية إلى الأندلس والبرتغال

ثانيا ـ أن الكثير من أولئك الفقهاء والعلماء قد كانوا من المدافعين عن حمى الأوطان أو مرابطين في قلاع الثغور أو مشاركين ضدّ الغزاة أو حاملين للألوية في الفتوحات من بينهم ـ عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المولود حوالي سنة 74 للهجرة وقد شارك في الوقائع البحرية فأسره الرَوم ثم اُفتدي وفُكّ من الأسر فأرسل مقطوعة إلى أهله يقول فيها

ذكرتُ القيروانَ فهاج شوقي * وأين القيروان من العراقِ
مسيرة أشهر للعِيسِ نـصًا * على الخيل المضَمّرَةِ العِتَاق
فَبَلِّغْ أنْعَمًا وبني أبيـــــه * ومَنْ يُرجَى لَنَا وَلَهُ الـتّلاَقي
بأنَّ الله قد خلّى سبيـــلي * وَجَدَّ بِنا المسيرُ إلى مـزاقِ

ومن أولئك الذين حملوا لواء الجهاد الإمام سحنون المولود سنة 160 هـ فقد كان كثيرا ما يَتَمثّل بقوله

كُلّ شيءٍ قد أراه نُكْـــرًا * غيرَ ركز الرّمح في ظهر الفرسْ
وقيامٍ في حناديس الدّجى * حارسًا للقوم في أقصى الحرسْ

ثالثا ـ أن عددا كبيرا من أولئك العلماء والفقهاء كانوا مستقلين عن الحاكمين غير راغبين في تولّي المناصب مثل منصب القضاء والحسبة وتدريس أبناء الطبقة الحاكمة فعاشوا من كدّ يمينهم ومن كسبهم في سائر ضروب المعاش وكانوا ينتصرون للضعفاء ناصحين لأولي الأمر ولا يخشَوْن في الحق لومة لائم وإنّ كُتب التراجم والطبقات زاخرةٌ بعديد الأمثلة من بينها ما أورده حسن حسني عبدالوهاب فقد أورد أنّ الإمام سحنون الذي توفي سنة 240 للهجرة اِشترط على الأمير الأغلبي عندما قلّده القضاء بعد إلحاح أن يبدأ بتطبيق الأحكام على أهل بيته وأعوانه وأن لا يتسلم عطية أو مالا منه فقبل الأمير منه ذلك وأورد كذلك حسن حسني عبد الوهاب أن محرز بن خلف كتب رسالة إلى الأمير الصنهاجي يقول فيها وقد أوصى إليه ببعض تلاميذه ـ أنا رجل عرف كثيرٌ من الناس اِسمي وهذا من البلاء وأنا أسأل الله أن يتغمدني برحمةٍ منه وفضل وربما أتاني المضطر يسأل الحاجة فإن تأخرتُ خفتُ وإن ساعدتُ فهذا أشدّ وقد كتبتُ إليك في مسألة رجُل من الطلبة طولب بدراهم ظلما ولا شيء عليه فعاملْ فيه مَن لابد لك من لقائه واِستح ممّن بنعمته وَجدتَ لذيذ العيش واِستعنْ في أمرك بمن يتّقي الله

أمَا الملاحظة الأخيرة فإنها تتمثل في أن العديد من أولئك الفقهاء والعلماء في تونس و إفريقية تُنسب إليهم أشعار قليلة أو كثيرة و لم يخالف هذه الوتيرة حتى الفقيهُ اِبنُ عرْفة والمؤرخ اِبنُ خلدون ويمكن أن نعدّ البعض منهم شعراء بارزين في عصورهم مثل مُحرز بن خلف الذي عاصر القرن الرابع والخامس الهجري ومثل إبراهيم الرياحي الذي عاصرالقرن التاسع عشر الميلادي وقد سار على هذا المنهج في قرض الشعر كثيرٌ من الشيوخ المعاصرين المتخرّجين من الزيتونة نذكر منهم خاصة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ الخضر حسين وقد نسج على منوالهما الشيخ الحبيب المستاوي الذي نعتبره آخر عنقود الفقهاء الذين جمعوا بين منهج الدعوة الدينية ووجدان الملكة الشعرية فكيف تجلت هذه الثنائية في شعر الشيخ الحبيب المستاوي ؟
في أكثر من قصيدة في ديوان ـ مع الله ـ نجد ذكر الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور الذي يعتبره رمزا للعلم والإصلاح حيث يقول في تأبينه

هو الغيثُ مَنهلا وقد أصبحتْ به * مرابعُ أهل العلم خيرَ المَرابـــــع
أفاضَ على الدنيا فضائلَ روحه * وحَبّب في الإسلام أهلَ الـــذرائع
بأخلاقه المُثلى وحكمته التي * تشرّبها من فيض تلك المـــنـــــابع
سنبقى ـ مع التوفيق ـ جُندَ محمد * ونعملُ للإصلاح دون تـــــراجع
فَنَمْ مُطمئنّ البال خلفك نخبةٌ * سَمَوا بالمعاني عن رخيص المطامع

وداعا أيا شيخي وشيخُ زمانه * وداعَ مُحبّ للمُهيمن خـــــــــاضع

ونراه يذكر شيخه أيضا حتى وهو بعيدٌ عن أرض الوطن في قصيدة قالها وهو بالمغرب الأقصى
وللعلم فإن الشّيخ محمد الفاضل بن عاشور يُعتبر سليلَ المدرسة الإصلاحية التونسية تلك التي ظهرت منذ منتصف القرن التاسع عشر وقامت على دعامتين أساسيتين متلازمتين هما الأصالة والتحديث , الأصالة في الدعوة إلى التمسك بقيم الإسلام وجوهره ومقاصده والتحديث في الدعوة إلى روح العصر والاِستفادة من منجزات الغرب, تلك هي الثنائية التي تأسّست عليها الحركات والمبادرات الاِجتماعية والأدبية والفنية والسياسية عامة ولكن بدرجات متفاوتة أحيانا بين هذا الطرف وذاك وإننا نستشفّ في أغلب دواوين شعراء القرنين التاسع عشر والعشرين المنهج الإصلاحيَّ الداعيَ إلى العدل والعلم حينا وإلى التحرر من الاِستعمار حينا ثم إلى الخروج من مظاهر التخلف ومواكبة التقدم حينا آخر كما في قصيد ـ من وحي المولد ـ للشيخ المستاوي حيث يقول

إيه يا أمّة الخلود لماذا * فاتك الرّكب ؟ أفصحي بالمقـــــال
ليت شعري كم ذا يدوم هُجوعٌ ؟ * هل أصيب اِتصالُنا بانفصال ؟
هل فُتنا ببهرج وطـــلاء * واِنتشينا بفارغ الآمـــــــــــال
ونبذنا تراثنا بـــــازدراء * في عُقوق وقِحّة وابتـــــــــذال
أقفر القلبُ والعزائم خارتْ * وأصيب الذكاء بالاِمّحـــــــال
فأفيقُوا ـ فديتُكم ـ من سُبات * اِرجِعوا ـ ويحَكم ـ بدون مِطال

حيث يُقرّ الشيخُ أنّ الأمة العربية الإسلامية أضحت متخلّفة عن ركب الحضارة ويُرجع ذلك إلى عدة أسباب من بينها خاصة اِستفحالُ الوهَن في النفوس وصُمور الذكاء في الرؤوس ونسمعه ينادي أن أفيقوا واِستيقظوا وإنَ المتأمل في مسيرته يلاحظ أنه دأب على العمل التربوي والنقابي والخطابي والدعوي والصحفي والإذاعي على مدى أغلب فترات حياته التي لم تخلُ من الاِنخراط في النشاط السياسي أيضا وقد سمح له ذلك بالوقوف أمام بعض الرؤساء والملوك منشدا قصائده التي كانت مناسبة لإعلان منهجه الإصلاحي القائم على النقد لبعض الأوضاع مما يجعلها تخرج إلى حد بعيد في كثير من الأحيان عن تقاليد غرض المدح وتضع الإصبع على الجرح فعندما أنشد قصيده أمام الملك فيصل ملك العربية السعودية قد اِستهلّها بالتغنّي بمدينة القدس قائلا

رحاب القدس أهزُج في رُباها * أهيم بها وأفنَى في علاها
وأسبح في خضم من رؤاها * فكيف أطيق عيشا في سواها
ولها دمي وأنفاسي وقصدي
وفي غضون وسط القصيدة نراه يقول
لقد عبث اليهود بأرض قدس * وقد ملأوا البلاد بكل رجس

ويمضي اليومُ يجري خلف أمس * ونحن نعيش في أمل التأسّي
ولا نأتي بما يُغني ويُجدي

وفي القصيدة بعض المقاطع التي تُعتبر جريئة بل ربما لا تُناسب المقام الملكي حيث يقول في أسلوب النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكنه أسلوب مشوب بكثير من الزجر والتوبيخ كذلك

ألا عُودوا إلى سُبل الرشاد * وذُودوا عنكم شبح الفساد
ولبّوا مَن دعا للاِتحاد * به قد جاءنا خيرُ العـــــــــباد
وليس الجمعُ يُكسر مثلَ فرد

ونراه كذلك يؤكد على ضرورة صدق الحكام وصلاح العلماء وهو بتركيزه على هذه الثنائية الأساسية إنما يؤكد على تلازم الثقافي والسياسي ضمن جدلية قائمة أساسا على الإخلاص حيث يقول

ولو صدق الكبار الحاكمونا * ولو صلُح الشيوخ العالمونا
لما عبث القُساة الظالمونا * ولا غلب الخصوم الماكرونا
ولا درج البُغاث على التحدّي

ويتدارك الشيخ المستاوي هذه اللهجة الصريحة والحادة في آخر القصيدة قائلا في أسلوب المجاملة والكياسة هو أقرب إلى الدبلوماسية ذلك أن القصيدة قيلت بمناسبة مشاركته في الوفد الرسمي للحجيج التونسيين إذ يقول

تحايانا إلى الشعب السّعودي * وفيصلُه المُعلَّم بالصمود
مَليك شأنُه حفظ العهود * وقاهُ الله من حسد الحسود
فلم يحفل بمدح أو بنقد
من الخضراء والبطل الحبيب * أخيكَ الطيّبِ القلب النَجيب
تُراعي رفقة الزمن العصيب * وما قد شدَّ من نسب قريب
ونأتي للحمى في خير وفد

فالمنهج الإصلاحي في شعر الشيخ الحبيب المستاوي قائم على القيم الأصيلة تلك القيم التي كانت أساسَ الحضارة العربية الإسلامية عندما كانت في أوج اِزدهارها لذلك نراه ينظر إلى بعض المظاهر الدخيلة على المجتمع نظرة اِزدراء واِستنكار حيث يقول

فترى الفتاة خليعة مرذولة * ممسوخة في الشكل والـــهندام
وترى الفتى متخنثا متشبها * بالمائسات وساخرا بمـــــــــلام
زحفتْ قشور حضارة مزعومةٍ * نحو الشباب فغاب في الأوهام
هلا أعدتم يا مليك بناءه * في الحكم في التعليم والإعـــــــلام

إنّ مثل هذه القصائد التي تَوجّه بها الشيخ الحبيب المستاوي إلى بعض الرؤساء والملوك والتي دعا فيها إلى منهجه الإصلاحي لابدّ من التساؤل إلى أي حدَ كان الذين خاطبهم فيها مثّلوا جزءا من الفساد الذي واجهه وهل كان بإمكانهم الإصلاح المنشود ؟ وهل كان شاعرا وواعيا بذلك ؟
في هذا السّياق من الضروري أن نبحث بعمق وبكل موضوعية في العلاقة التي كانت بين الشاعر الحبيب المستاوي والرئيس الحبيب بورقيبة وكيف تعايش في فترة من الفترات المنهج الإصلاحي لدي الشيخ الزيتوني ذي الأس التقليدي مع المشروع التحديثي لدى الزعيم بورقيبة ذي التوجه الغربي بالرّغم من أنّ ذينك البُعدين يُمثلان طرَفي معادلةٍ سادت على مدى القرن العشرين في تونس وقد تراوحت العلاقة بينهما بين المدّ والجزر حينا وبين الاِختلاف والاِئتلاف حينا وبين الوئام والاِنسجام أحيانا وقد مثّل شعر الشيخ الحبيب المستاوي صورة لبعض تلك الفترات من العلاقة بين المشروعين المتناقضين في الظاهر لكنهما يمثلان في الباطن جدلية التطور في تاريخ المجتمعات تلك الجدلية التي لم نظفر بمعادلتها الصحيحة إلى اليوم غير أني أرى أنها تتطلب بعض الشروط من بينها

ـ إذكاء حركة الاِجتهاد والتجديد ضمن مقاصد الإسلام السّمحة
ـ اِعتبار المنجزات الإنسانية في العالم من مساهمات العرب المسلمين فيها أيضا
ـ الاِبتعاد عن الولاءات الخارجية فلا ولاء إلا للأوطان وحدها
ـ إبراز قيمة العمل والكسب والسّعي نحو الترقّي
ـ إشاعة مناخ الحوار وقبول الاِختلاف في كنف الاِحترام
فلقد قال أسلافنا الصّالحون ـ رأيي صحيح يحتمل الخطأ ورأيك خطأ يحتمل الصّواب
ففي ذلك فليتنافس المُتنافسون واللّه وليُّ التّوفيق